خطبة صلاة الجمعة 13/1/2023 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

## (مفهوم القضاء والقدر)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا﴾ [الفجر: 15-17] قال المفسرون: (ردَّ الله على من ظن أن سعة الرزق إكرام وأن الفقر إهانة، فأخبر أن الإكرام بطاعته والإهانة بمعصيته). فصححت الآية مفهوماً خطأ.

أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: **«مَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ؟ قَالَ: قُلْنَا: الَّذِي لَا يَصْرَعُهُ الرِّجَالُ قَالَ: لَيْسَ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»**.

وفي رواية قال: **«فما تعدُّون المفلس فيكم؟»** قلنا: من لا مال له، قال: **«ليس بذلك، ولكنه الذي يأتي يوم القيامة بحسنات، ويأتي قد ظَلَم هذا، وشتم هذا، وأخذ مال هذا، وليس هناك دينارٌ ولا درهمٌ، فيعطَوْن من حسناته ولا يَفي، فيؤخذ من سيئاتهم فيطرح عليه»**.

ففي الحديث توضيح وتصحيح نبوي لمفهومي الصرعة والمفلس.

وفي القرآن والسنة من أمثال هذا في تصحيح المفاهيم كثير.

**أيها الإخوة:**

التصورات توجه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات.

فتصورات الإنسان ومفاهيمه تنعكس في حياته سلوكاً وسكوناً، وأعمالا وأقوالاً، وعطاءً ومنعاً.

فمن تصور المعنى الحقيقي للذهب حافظ عليه وضن به، بينما من تصور أن الذهب معدنٌ خسيس فرط فيه وضيعه؛ فالتصورات توجه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات.

هذه الخطبة السابعة من سلسلة خطب عنوانها: (مفاهيم تحتاج إلى تصحيح) جاءت لتصحيح مفاهيمنا لبعض المصطلحات الشرعية والحياتية، والمأمول ممن صح تصوره أن يصح تصرفه. والله الموفق.

عنوان خطبة اليوم: **مفهوم القضاء والقدر**

تابع كاملَ دروسِ العلمِ عبر اليوتيوب والتحق بحلَقِ الذكر، ولشدة انشغاله بأوراده وهيامه بمتابعة الدروس الالكترونية وتسجيله في دوراتها بدأ يقصر في حق أهله وفي واجبات عمله وشيئاً فشيئاً ترك العمل واعتزل أهله وأهمل بدنه، وعندما سأله أهله ومن حوله عما يفعل، أجاب بأن كل شيء مقدَّر وأن رزقه سيلحق به وأنه من الأفضل أن يشتغل بالأوراد والتعلم عن السعي للدنيا.

ترى هل صحيح أن القضاء والقدر يعنيان أن يقعد المرء بلا عمل فيلحقه رزقه، وأن يركن إلى الخمول فيلحقَه عطاؤه، ما المفهوم الصحيح للقضاء والقدر؟

مرض براء مرضاً شديداً ارتفعت فيه حرارته ووهن جسمه، ولما أراد أهله استدعاء طبيب رفض ذلك زاعماً أن أقدار الله لا تُدَافَع، وأن المقدَّر كائن، وأن العبد لا يملك حيلة أمام قضاء الله وقدره.

ترى هل صحيح أن القضاء والقدر يسلبان العبد إرادته وفعله، وهل الإيمان بالقدر يعني الركون وعدم السعي، ما المفهوم الصحيح للقضاء والقدر؟

يرتكب جلال الذنب إثر الذنب والمعصية إثر أختها وإذا فاتحه أخوه بالتوبة وترك ما هو عليه أجاب: بأن الله تعالى يُضِلُّ من يشاء ويهدي من يشاء، وأنه سبحانه كتب عليه الشقاء وأجبره عليه، وأنه لا حيلة له مع القضاء والقدر.

ترى هل صحيح أن العبد مجبر على المعصية أو الطاعة، ما المفهوم الصحيح للقضاء والقدر.

**أيها الإخوة:**

القضاء: هو علم الله سبحانه وتعالى بكل ما يجري في الكون، والقدر وقوع الأشياء وفقاً لعلم الله تعالى.

والإيمان بالقضاء والقدر جزء رئيس من عقيدة المسلم كما جاء في حديث جبريل عليه السلام: **«الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره»** [البخاري].

ولقد كان هذا الإيمان ولا يزال قوةً بنّاءة محرّكة للمؤمنين الذين فهموا حقيقته وعملوا بمقتضاه، على حين أنه تحول إلى طاقة سلبية خاملة مُخَذِّلَة للذين أخطؤوا فهمه ومعرفته.

شهد سيدنا عقبة بن نافع فتح مصر، ثم افتتح السودان، ثم بنى مدينة القيروان بتونس، ثم فتح المغرب الأقصى، ولما وصل إلى بحر الظلمات (البحر الأطلنطي أو الأطلسي) قال كلمته الشهيرة: "اللهمّ لولا هذا البحر لمضيت مجاهداً في سبيلك حتى أفتح الدنيا لنور الإسلام أو أهلك دونه". بلغ البحر، ثم عاد الجيش الإسلامي يسدّ ما ترك من فجوات ويُكمِل ما أجّل من فتوح حتى شمل الفتح الشمال الإفريقي كلّه.

هكذا فهم المسلمون الأُوَل القضاء والقدر: أَقْدِمْ وتوكَّل ولا تتوانَ وتتواكل، اعمل ولا تعجز واجهد ولا تكسل، وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك وما قضاه الله وقدّره سيكون.

خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشام حتى إذا كان بسَرْغ – اسم مكان- لقيه أبو عبيدة بن الجراح فأخبره أن الوباء قد وقع بالشام، فاستشار عمر مَن معه من مشيخة قريش، هل يدخل الشام وفيها الوباء أو يرجع، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء.

فنادى عمر في الناس: إني مصبح على ظهر، فأصبحوا عليه. فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت إن كان لك إبل هبطت وادياً له عدوتان: إحداهما خصيبة، والأخرى مجدبة؛ أليس إن رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف- وكان متغيباً في بعض حاجته- فقال: إن عندي في هذا علماً، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **«إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه»**. قال: فحمد الله عمر، ثم انصرف.

هكذا فهم المسلمون الأُوَل القضاء والقدر، أخذاً بالأسباب وتوكلاً على رب الأرباب. وما قضاه الله وقدره سيكون.

جيء بشارب خمر إلى أحد الخلفاء فسأله عن سبب شربه فقال له: إن الله كتب علي ذلك وإن كل شيء بقدر، فأمر الخليفة بجلده حد شرب الخمر وزاده تعزيراً لكذبه على الله، وقال له هذه قدر هذه.

هكذا فهم المسلمون الأُوَل القضاء والقدر، قضاءً لا ينفي المسؤولية عن العبد وقدراً لا يعفيه من واجباته. وما قضاه الله وقدره سيكون.

**أيها الإخوة:**

الإيمان بالقضاء والقدر يعطي المؤمن طمأنينة بأن ما أصابه بعد كل ما بذل من جهد ودأب لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فلا هو يجزع عند الضراء، ولا هو يتكبّر عند السراء.

الإيمان بالقضاء والقدر يدفع المؤمن إلى اقتحام الصعاب وقطع المفاوز إذ يدفع عنه هذا الإيمان الخوف والهلع.

الإيمان بالقضاء والقدر يصدُّ المرء عن حسد ذوي النعمة والاعتراض على ذوي الرتبة، إذ كل شيء بقدر الله وقضائه، والمؤمن بقضاء الله وقدره لا ييأس ولا يقنط ولا يذهب نحو الانتحار؛ لأنه يعلم أن قضاء الله له بالخير يأتي بلمحة وأن قدر الله له بالفرج يأتي بلحظة.

نقل دايل كارنجي في كتابه "دع القلق وابدأ الحياة" عن كتاب اسمه (رياح على الصحراء) لكاتب غربي يلقب "ر.ن.بودلي" فصلاً عنوانه: عشت في جنة الله، يقول:

(في عام 1918 ولَّيت ظهري العالمَ الذي عرفته طيلة حياتي، ويممت شطر أفريقيا الشمالية الغربية، حيث عشت بين الأعراب في الصحراء، وقضيت هناك سبعة أعوام، أتقنت خلالها لغة البدو، وكنت أرتدي زيهم، وآكل من طعامهم، وأتخذ مظاهرهم في الحياة، وغدوت مثلهم أمتلك أغناماً، وأنام كما ينامون في الخيام، وقد تعمقت في دراسة الإسلام، حتى إنني ألفت كتاباً عن محمد عنوانه (الرسول) وكانت تلك الأعوام السبعة التي قضيتها مع هؤلاء البدو الرُّحَّل من أمتع سني حياتي، وأحفلها بالسلام، والاطمئنان، والرضا بالحياة.

وقد تعلمت من عرب الصحراء كيف أتغلب على القلق؛ فهم بوصفهم مسلمين يؤمنون بالقضاء والقدر، وقد ساعدهم هذا الإيمان على العيش في أمان، وأَخْذِ الحياة مأخذاً سهلاً هَيِّنَاً، فهم لا يتعجلون أمراً، ولا يلقون بأنفسهم بين براثن الهم قلقاً على أمر.

إنهم يؤمنون بأن ما قُدِّر يكون، وأن الفرد منهم لن يصيبه إلا ما كتب الله له.

وليس معنى هذا أنهم يتواكلون أو يقفون في وجه الكارثة مكتوفي الأيدي، كلاَّ).

ثم أردف قائلاً: (ودعني أضرب لك مثلاً لما أعنيه: هَبَّتْ ذات يوم عاصفةٌ عاتيةٌ حملت رمال الصحراء، وكانت العاصفة شديدة الحرارة، حتى أحسست كأن رأس شعري يتزعزع من منابته؛ لفرط وطأة الحر، وأحسست من فرط القيظ كأنني مدفوع إلى الجنون.

ولكنَّ العربَ لم يشْكُوا إطلاقاً، فقد هزوا أكتافهم، وقالوا كلمتهم المأثورة: قضاء مكتوب.

لكنهم ما إن مرت العاصفة حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير، فذبحوا صغار الخراف قبل أن يودي القيظ بحياتها، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء.

فعلوا هذا كله في صمت وهدوء، دون أن تبدو من أحدهم شكوى.

قال رئيس القبيلة _ الشيخ _: لم نفقد الشيء الكبير؛ فقد كنا خليقين بأن نفقد كل شيء، ولكن حمداً لله وشكراً؛ فإن لدينا نحو أربعين في المائة من ماشيتنا، وفي استطاعتنا أن نبدأ عملنا من جديد.

وبعد أن استعرض بودلي تجربته مع عرب الصحراء علق قائلاً: وخلاصة القول: أنني بعد انقضاء سبعة عشر عاماً على مغادرتي الصحراء _ ما زلت أتخذ موقف العرب حيال قضاء الله، فأقبل الحوادث التي لا حيلة لي فيها بالهدوء والامتثال والسكينة.

ولقد أفلحت هذه الطباع التي اكتسبتها من العرب في تهدئة أعصابي أكثر مما تفلح آلاف المسكِّنات والعقاقير الطبية).

**أيها الإخوة:**

بناء على كل ما سبق: نقول لكامل: إن القضاء والقدر يدعوانك للكسب والعمل كما عمل عقبة بن نافع ومن معه، واقرأ في القرآن والحديث المئات والمئات من الأدلة الداعية للجد والعمل الذامّة للقعود للكسل، ونقول لبراء: إن الذي قدَّر المرض قدَّر الشفاء وجعل لكلٍّ أسباباً فتداووا يا عباد الله، ونقول لجلال صحيحٌ أن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، ولكن الصواب أن تكمل قراءة الآية ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 93] والصواب أن تقرأ الآيات الشارحة لبعضها ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: 27] ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: 5] ، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: 17].

فلو أراد جلال الهدى لسلك دربه، وإن الله تعالى يمد كلاً من عباده بما اختاره.

**أيها الإخوة:**

خلاصة الخطبة في هذه الكلمات:

1- القضاء هو علم الله سبحانه وتعالى بكل ما يجري في الكون، والقدر وقوع الأشياء وفقاً لعلم الله تعالى.

2- الإيمان بالقضاء والقدر جزء رئيس من عقيدة المسلم.

3- الإيمان بالقضاء والقدر قوة بناءة محركة للمؤمنين الذين فهموا حقيقته وعملوا بمقتضاه، على حين أنه طاقة سلبية مُخَذِّلة للذين أخطؤوا فهمه ومعرفته.

4- الإيمان بالقضاء والقدر يدعوك للعمل لا الكسل وللأخذ بالأسباب والتوكل على رب الأرباب، ويُحَمِّلُك مسؤوليه عملك واختيارك.

5- الإيمان بالقضاء والقدر يعطي المؤمن طمأنينة وإرادة وقوة وهمة، ويدفع عنه اليأس والقنوط.

**أيها الإخوة:**

التصورات توجه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات، ولهذا جاءت سلسلة مفاهيم تحتاج إلى تصحيح، وهذه الخطبة تحدثت عن مفهوم القضاء والقدر، والمأمول ممن صح تصوره أن يصح تصرفه. والله الموفق.

والحمد لله رب العالمين